المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، وصلاة الله وسلامه ورحمته على صفوة خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله، سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحابته أجمعين، ورحمة الله ومغفرته للتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحمد لله وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أستفتح بالذي هو خير: {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾} [لقمان: ٣٣].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾} [الحج: ١].

أما بعد

فإن مما يلاحظ على أمة الإسلام في عصورها المتأخرة دنو الهمم والرضا بالدون والقعود عن معالي الأمور والاشتغال بالسفاسف والمحقرات.

وذلك على مستوى الأفراد والجماعات إلا من رحم ربك وقليل ما هم؛ ولهذا أصبحت الأمة غرضًا لأعدائها الذين تسلطوا عليها وجاسوا خلال ديارها، فساموها سوء العذاب من بعد كانت عزيزة مهيبة الجناب فهوت من عليائها، ونزلت من شامخ عزها، ولقيت صغاراً بعد شمم وذلاً بعد عزة وجهلاً بعد علم وبطالة بعد نشاط وتقاطعاً بعد ائتلاف وكادت أن تشرف على حضيض التلاشي والفناء.

وما أحوجنا - نحن المسلمين - أفرادًا وجماعات - أن نرجع إلى ديننا وأن نعلي هممنا حتى يعود لنا مجدنا السليب وعزتنا المسروقة.

وإن مما يعين على أن تُذكى معاني الهمة، وأن تحرك في النفوس قراءة ومتابعة سيرة نبينا محمد ﷺ فلا تعرف الأرض همة أعلى من همته، ولم تظل السماء رجلاً أشرف مقصدًا، وأنبل مرادًا من رسولنا عليه الصلاة والسلام، وكذلك سيرة الصحابة رضوان الله عليهم وسيرة سلف الأمة الصالح رحمهم الله، وجمعنا الله وإياهم في الفردوس الأعلى من الجنة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إن صاحب الهمة العالية والنفس الشريفة التواقة لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنى ولا يرجع عن مطلوبه، ولو تلفت نفسه في طلبه ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه.

وإذا كانت النفوس كبارا ::: تعبت في مرادها الأجساد

قال عمر بن عبد العزيز: إن لي نفسًا تواقة ما نالت شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، وإنها لما نالت هذه المنزلة يعني الخلافة

وليس في الدنيا منزلة أعلى منها تاقت إلى ما هو أعلى من الدنيا يعني الآخرة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ::: وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ::: وتصغر في عين العظيم العظائم.

ومن دنو الهمة الرضا بالدون مع القدرة على ما هو أفضل وأحسن، قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دنيء.

ولم أر في عيوب الناس عيبًا ::: كنقص القادرين على التمام

والله أيها الأحبة! إنني على ثقة أن في شباب أمتنا وفتياتها ورجالها ونسائها خيراً كثيراً، وأن في وسعهم وطاقاتهم الكثير الكثير، ولكن السلبية تلك الداء العضال - أعاذنا الله وإياكم منها - إن الله يربي المؤمنين على التطلع إلى أعلى المقامات، فيقول سبحانه على لسانهم: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤].

انظر {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤] لم يقل سبحانه وتعالى: واجعلنا من المتقين! ولكنها تربية على الهمة العالية والعزيمة الصادقة {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤].

إن الله عز وجل يريد منا أن نكون ذا همة عالية، لا أن نكون من المتقين فقط، بل أن نكون إماماً للمتقين هكذا يريد الله عز وجل أن يربي هذه النفوس، واسمع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى**» لماذا هذا الأمر؟! (فاسألوه الفردوس الأعلى) لأن المسلم صاحب مبدأ، وهو على الحق فإن عاش عاش عزيزاً، وإن مات مات شهيداً، والله معه مؤيداً وحافظاً، والجنة مستقره وموعده.

اسمع لابن الجوزي وهو يقول رحمه الله تعالى: ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها، فهم يبالغون في كل علم

ويجتهدون في كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون، وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم، فهم يحتقرونها مع التمام، ويعتذرون من التقصير، ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك، ومنهم من لا يرى ما عمل أصلاً؛ لأنه يرى عمله ونفسه لسيده.

واسمع لشعر هذا الكناس وعزته، قال الأصمعي: مررت بكناس - يكنس الشوارع - في البصرة ينشد يقول:

فإياك والسكنى بأرض مذلة تعد ::: مسيئاً فيها إن كنت محسنًا
ونفسك أكرمها وإن ضاق مسكن ::: عليك بها فاطلب لنفسك مسكنًا

هذا الذي يقوله الكناس، فقلت - أي: الأصمعي: والله لن يبقى بعد هذا مذلة، وأي مذلة بعد الكنس؟ فقال الكناس: والله لكنس ألف مرة، أحسن من القيام على باب مثلك.

هكذا تكون عزة المسلم أيًّا كان ذلك العمل الذي يقوم به، ما دام أنه يقوم به لله عز وجل.

وإني لمشتاق إلى كل غاية من ::: المجد يكبو دونها المتطاول
بذول لمال حين يبخل ذو النهى ::: عفيف عن الفحشاء قرن حلاحل[1]
إذا كانت النفوس كبارا ::: تعبت في مرادها الأجسام
ولكل جسم في النحول بلية ::: وبلاء جسمي من تفاوت همتي

إن الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العوام ليس مرجعه إلى صفة، أو موهبة فطرية للعقل، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجهون إليها هممهم وإلى التركيز الذي يسعهم أن يبلغوا هذه المنازل.

نحن مثلاً نرى من علماء الحديث من يقولون عنه: إنه كان يحفظ

(١) الحلاحل هو: السيد في عشيرته، الأمير في مجلسه.

كذا وكذا ألفاً من الحديث، أو يعرفون عن رجال الحديث ورواتهم كذا وكذا ألفاً وبعض الناس يقول: كيف هذا أي عقل يستوعب هذا؟

فنحن نقول: انظر إلى ما يحفظه كثيرٌ من الناس أو ما نحفظه نحن بمجموع ما عندنا كم يحفظ كثيرٌ من الناس من أسماء المغنين والمغنيات والفنانين والفنانات، واللاعبين واللاعبات، وأسماء المجلات وأسماء الأسطوانات، وكذا تجد أنه كمٌّ هائل ربما يعدل شيئاً من ذلك.

مثلٌ يسير.. الإمام البخاري - رحمه الله - كان جُل اهتمامه وتركيزه في الحديث، وبلغ فيه مبلغاً عظيماً حتى لُقّب بأمير المؤمنين في الحديث.

انظر إلى عظمة التركيز في قصة واحدة قالها بعض أصحابه قال: نمت مع البخاري ليلة وإذا بي أُحصي له ستة عشرة مرة يقوم فينظر في أوراقه فيدون شيئاً أو يُطالع شيئاً.

لماذا فكره مرّكز وهمه منحصر في ذلك إذا نام حتى إذا استيقظ تذكر شيئاً فقام.

أبو عبيد القاسم بن سلاّم - رحمه الله - له قصة طريفة أيضاً ذكرها مؤلف وفيات الأعيان يقول:كان يفكر في المسألة ولا يصل فيها إلى حل فجاء لينام وغلبته عيناه، ثم إذا به يستيقظ وظل طول ليله يفكر حتى الصبح ولكنه وصل فيها إلى نتيجة، قال: فما رأيت ليلة أبرك عندي منها.

إذا شغله شيء لا يلتفت إليه وحتى في مجال آخر.

زين العابدين - رحمه الله - كان يصلي في بيته واشتعلت النار في البيت، وجعل بعض الناس يصيح: يا بن رسول الله، النار.. النار! فما شعر إلا بعد أن أُطفئت النار وخلصت الصلاة، قالوا: أما شعرت؟! قال: ألهاني عن النار النار الأخرى.

وعروة بن الزبير نعرف قصته لما سرى الداء إلى رِجله قالوا:

نسقيك شيئاً من الخمر فنقطعها حتى لا تشعر! قال: لا! ما كنت لأستعين بمعصية الله، ولكن إذا دخلت في الصلاة فافعلوا ما شئتم، فقطعوها وغمسوها في الزيت المغلي حتى يلتئم جرحها.. وفي بعض الروايات التاريخية أن الوليد وهو الخليفة قال: وإني لأشم رائحة الشواء وهو في صلاته حتى أُغمي عليه رضي الله عنه ورحمه الله.

هكذا يكون الانشغال بالقضية، وهذه قضية بشرية انظر إلى الذين ينشغلون ببعض الأمور والأعمال، أو المهمات التي يلتفت إليها بعض الناس من العباقرة، حتى في العلم تجده لا يعرف كيف يلبس الملابس! ولا يعرف كيف يأكل الطعام! ينشغل بشيء حتى إن الإمام مسلم - رحمه الله - وقصة وفاته فيها عبرة كانت عنده مسألة من الحديث فدخل إلى بيته ورجع - بعد أن راجعه بعض الناس في الدرس - يبحث فقال لأهله: لا يدخل أحد عليَّ، فقالوا: أُهدينا تمراً، قال: قربوه لي، فجعل يأكل ويقرأ، يأكل ويطالع وهو لا ينتبه حتى أكل التمر كله، قالوا: فمرض بسبب ذلك فكان منه موته بقدر الله سبحانه وتعالى.

ذريني أنل ما لا ينال من العلا ::: فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة ::: ولابد دون الشهد من إبر النحل

وقال الآخر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ::: الجود يفقر والإقدام قتّال
فكن رجلا رجله في الثرى ::: وهامة همته في الثريا

إن الهمم العالية كنوز غالية يمتن بها المنان على من يشاء من بني الإنسان، فطوبى لمن أولاه مولاه تلك الهمة العالية والعزيمة الوثابة والإرادة الماضية، فما آفة المحق إلا التردد والتذبذب، والتخاذل والفتور، والرضا بتوافه الأشياء ومحقرات الأمور!

فعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: أتى النبيَّ ﷺ أعرابيٌّ فأكرمه، فقال له:«ائتنا»، فأتاه، فقال له رسول الله ﷺ :«سل

حاجتك». قال: ناقة نركبها، وأعنز يحلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟!».

قالوا: يا رسول الله! وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «إنَّ موسى - عليه السلام - لما سارَ ببني إسرائيل من مصر؛ ضَلّوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إنَّ يوسفَ - عليه السلام - لمّا حضره الموتُ؛ أخذ علينا موثقاً من الله، ألاَّ نخرجَ من مصر حتّى ننقلَ عظامَه معنا - أي بدنه، وهو من باب إطلاق الجزء ويراد به الكل، فالأنبياء لا تأكل الأرض أجسادهم كما صح بذلك الخبر عن خير البشر - قال: فمن يعلمُ موضع قبره؟ قال: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها، فقال: دلّيني على قبر يوسفَ، قالت: حتى تعطيني حُكمي. قال: وما حكمكِ؟ قالت: أكونُ معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى اللهُ إليه أن أعطها حكمَها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ما، فقالت: انضبوا هذا الماء، فأنضبوه، فقالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا عظامَ يوسف، فلما أقلّوه إلى الأرض؛ فإذا الطريقُ مثل ضوء النهار»[1].

أرأيت الفرق الواسع والبون الشاسع بين من يريد أعنزاً يحلبها وناقة يركبها، وبين من تريد مرافقة الرسول في الجنة؟!

إنها الهمة العالية، وفقط!

والأمة الآن بحاجة إلى مدارسة سيرة رجال يبعثون فيها الهمة العالية والقدوة الحسنة إلى رجال عاشوا يقتفون أثر الحبيب محمد ﷺ وساروا على دربه، إلى رجال تحيا القلوب بذكرهم، حتى تستيقظ الأمة من غفوتها، وتقوم من كبوتها، ولكن شتان ما بين رجال ورجال، شتان ما بين رجال خلد الله ذكرهم على مر القرون وهم أموات، ورجال لا وزن لهم ولا ذكر لهم وهم أحياء، أولئك تحيا القلوب بذكرهم، وهؤلاء تموت القلوب بمجالستهم.

(١) السلسلة الصحيحة - للألباني (٣١٣) وصحيح موارد الظمآن (٤٥٢/٢) (٢٠٦٤).

يقول بشر الحافي: بحسبك أن أقواماً موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقواماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم.

إنّ البنفسجَ ترتاحُ القلوبُ لـه ::: ويعجزُ الوصفُ عن تحديدِ معجبِهِ
أوراقُه شُعل الكبريت منظرها ::: وريحه عنبرٌ تحيا القلوبُ بهِ

فالذكرى الحسنة لا تأتي من فراغ أو غثاء لذلك كان النداء من السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيوضع له القبول في الأرض.

ليس مَنْ ماتَ فاستراح بَميْتٍ ::: إنّما الميْتُ ميّتُ الأحياءِ
إنَّمَا الميْتُ مَنْ يَعِيشُ ذَلِيلاً ::: كَاسِفًا بَالُهُ قَلِيلَ الرّجَاءِ
فَأُنَاسٌ يُمَصَّصُونَ ثِمَادًا ::: وَأُنَاسٌ حُلُوقُهُمْ فِي المَاء (١)

فهناك أناس أحياء الجسد لكنهم موتى القلوب{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾} [الأعراف: ١٧٩]، {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾} [الفرقان: ٤٤].

فهذا إبراهيم عليه السلام طَلَبَ الذكرى الطيبة لنفسه على جلالة قدره:{وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾} [الشعراء: ٨٤] والمعنى: اجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتدى بي في الخير.

وليس الموت انقطاع النفس ::: ولكن الميت مَن يحيا بلا أثر

يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا

(١) الثماد الماء القليل يبقى في الحفر. والأبيات للشاعر عدي بن الرعلاء الغساني، والرعلاء أمه. انظر: الأصمعيات: ٥، ومعجم الشعراء: ٢٥٢، وتهذيب الألفاظ: ٤٤٨، والخزانة ٤: ١٨٧، وشرح شواهد المغني: ١٣٨.

اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

صور من الأحلام تثلج خاطري ::: ولقد تسر العاشق الأحلام
صور رسمت أمام قلبي لوحة منها ::: لعل جراحه تلتام
صور وتنسفها وقائع أمتي ::: نسفا ويبتلع المكان ظلام
وعلي رصيف الليل طفل واهم ::: نظراته نحو القلوب سهام
وسؤاله الملهوف يحرق مهجتي ::: أو ليس ديني يا أبي الإسلام
أو ليس منهج أمتي قرآنها ::: فبه لها في العالمين مقام
أو ليس قدوتنا الرسول محمد ::: تهدي إليه صلاتنا وسلام
أو ما لنا في المجد ألف حكاية ::: تعبت على تدوينها الأقلام
أو ما جرت أنهارنا رقراقة ::: بالخير ترفع فوقها الأعلام
أو ما لدينا النبع يصفو ماؤه ::: وعليه من شفق القلوب زحام
أو لم نكن جسر النجاة لعالم ::: يشقي به الضعفاء والأيتام
أو لم تصغ بدر بداية مجدنا ::: لما تهاوت عندها الأرقام
ألف تقابل ثلث ألف إنها ::: لأدلة للواهمين تقام
أو يكن بالفتح صرف عقيدة ::: في صدرها للمكرمات وسام
أو ما تري في الكون صوت بلالنا ::: وعلي صداه تهاوت الأصنام
أو لم تكن ذات السلاسل لوحة ::: مرسومة وإباؤنا الرسام
أو ما رأي اليرموك كيف استبشرت ::: ببزوغ فجر المسلمين الشام
أو لم تكن للقادسية قصة ::: أدلي بوصف شموخها الصمصام
أو لم نعلق في المدائن شمعة ::: بيضاء فر أمامها الإظلام
أو لم نلقن قيصرا وحشوده ::: درسا تحار أمامه الأفهام
أو لم ندع كسري على إيوانه ::: يبكي وتأكل صدره الآلام

أو لم يسلم جاذويه سلاحه ::: فرقا ويندب حظه بهرام
أو لم تخض بحر البطولة خيلنا ::: وبقلب أندلس لها إعظام
أو لم تقل للصين خيل قتيبة ::: جئنا يزف صهيلنا الإقدام
أو لم تفض حطين لحنا خالدا ::: تهفو إلى أنغامه الأنغام
أو لم تكن في عين جالوت لنا ::: همم لردع المعتدين عظام
أو هكذا ننسي المفاخر مثلما ::: ينسي الصغير هوي الرضاع فطام
أو هكذا أبتاه تسكر أمتي ::: سكرا يقدم كأسه الإعلام
أو هكذا تطوي عزائم جيلنا ::: قصص تصور فحشها الأفلام
قل لي أبي أنظل نأكل خبزنا ::: وعليه من دمنا المراق إدام
قل لي أبي أنظل نشرب ماءنا ::: والقدس يهتك عرضها وتضام
قل لي أبي أيبيت طفل ساهرا ::: في كفه حجر ونحن ننام
ورمت عيون المخبرين وراءه ::: وعلي شفاه الصامتين خطام
سكتوا لأن السيف مسلول إذا ::: نطقوا بما لا يرغب الأقزام
سيفان يا أبتاه سيف عدونا ::: صلت وسيف سله الحكام
وغرور أمريكا أحال رجالنا ::: خشبا تسمر فوقه الأحلام
أو ما لنا أبتاه عزم صادق ::: أو ليس بين صفوفنا مقدام
أو ما لنا في السلم نهج واضح ::: أو ما لنا وقت الحروب حسام
أو ما لنا في عالم اليوم الذي ::: يجري طريق واضح ونظام
أبتاه هذا بيتنا قد هدمت ::: جدرانه وأمامنا الهدام
أبتاه هذا جسم أمتنا تري ::: يه اللظى واستشرت الأورام
أبتاه هذا درب أمتنا شكى ::: يه الثري ما تصنع الألغام
كفر وربك يا أبي ينوي بنا ::: را ونحن كأننا الأنعام
قل لي أبي أنظل نعلق صمتنا ::: على الأنوف مذلة ورغام
أنظل نخفض للصليب رؤوسنا ::: ينام فوق فراشنا الحاخام
أو هكذا أبتاه ننسي ديننا ::: ويزيحنا عن مجدنا استسلام
كان الأب المسكين يحبس دمعه ::: لحزنه بين الضلوع ضرام

أبـــي لا تنطـــق فقـــد ألجمـــتني ::: واه كـــم يـــؤذي الكـــريم لجـــام
هذه هي الأمراض قد فتكت بنـــا ::: عصـــــرنا ودواءهـــــا الإســـــلام

إن أمتنا بحاجة ماسة إلى القدوة الفعلية المهتدية بالكتاب والسنة وهدي سلف الأمة التي تقف الألفاظ البليغة والعبارات القوية أمام فعلها عاجزة عن التعبير والوصف.

والقدوة الحسنة هي وسيلة عملية في البناء الخلقي، ولن تصلح التربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة [1]، والتاريخ الإسلامي حافل بنماذج حية للشخصيات الأخلاقية الكريمة، للترغيب في أخلاقهم، ومحاكاة الحسن منها، قال تعالى:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠]، كما حفل بنماذج أخرى ضدها للتنفير من محاكاتها، قال ابن حزم: ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والرذائل، لينفر سامعها من القبيح المأثور عن غيره، ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه ويتعظ بما سلف [2].

وقد سيق في القرآن الكريم تجارب الأنبياء الأخيار لينتفع منها النبي محمد ﷺ، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل، فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقا فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم [3]

والقدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكّركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام

(١) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ١٦.
(٢) الأخلاق والسير ١٩٥.
(٣) مفاتيح الغيب للرازي ٢٩ / ٨٠.

وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤] اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبرالتاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فَرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه:«**قوموا، فانحروا ثم احلقوا**»، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا غمًّا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفَه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر

بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسانِ - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًّا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ.

يا أمة الإسلام لن تتسنمي ::: رتب العلا بالْمال والأحساب
لن تسلكي درب الخلاص بمدفع ::: وبكثرة الأعوان والأصحاب
لن تبلغي إلا بنهج صادق ::: وتعلّق بالخالق الوهاب
تفنى الجيوش وتنتهي آثارها ::: وننال بالإيمان عز جناب
تفنَى القوى مهما تكاثر عدها ::: وتظل قوة ربنا الغلاب

ومطالعة السير، وأخبار أهل الصلاح وذويهم من أكثر الأسباب المعينة على الهمة العالية والمُفضية إليها والمؤدية إلى طريقها فإنها تشعل في القلب نار الحماسة وتذكي فيها العزيمة والجد بحيث لا يتوانى ولا يتكاسل ولا يتأخر وقد قال ابن الجوزي رحمه الله إن النظر في سير القوم حياة للقلوب وإعلاء للهمم.

ونعلم أن من سير الصحابة والتابعين والسلف الصالح - رضوان الله عليهم - ما لو تدبره وتعلق به المرء لكان خيراً له وسبباً من الأسباب التي تعينه بإذن الله عز وجل على فهم الواقع وتفسير الأحداث وما يحيط به.

والهدف من عرض النماذج الحسنة أن يقف المرء على حمد المتقين

الأخيار للفضائل فيرغب فيها ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها؛ ويقرأ أخبار الصالحين فيجب أن يكون منهم وأخبار المفسدين فيمقت طرائقهم.

والحقيقة أن النظر في حياة الصالحين والمصلحين وتراجمهم حياة القلوب وتزكية النفوس وزيادة الإيمان ونور البصائر،وشفاء الصدور، ورياض العقول،ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين.

وفكرة هذا الكتاب قد قامت على جمع معظم التراجم التي قد عالجتها في أعمالي السابقة التي وفقني الله في إتمامها، ومن ثم قمت باختصارها وإعدادها لتناسب القاريء، ثم أضفت لها بعض المقالات والتراجم لبعض مشاهير الأمة الإسلامية في شتي المجالات حتى تعم الفائدة. على أمل أن يعينني الله عز وجل وأن يكتب لي القيام بإفراد مجلد خاص بأعلام الصحابة والتابعين والفقهاء والقضاة... كل على حدة.

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *